

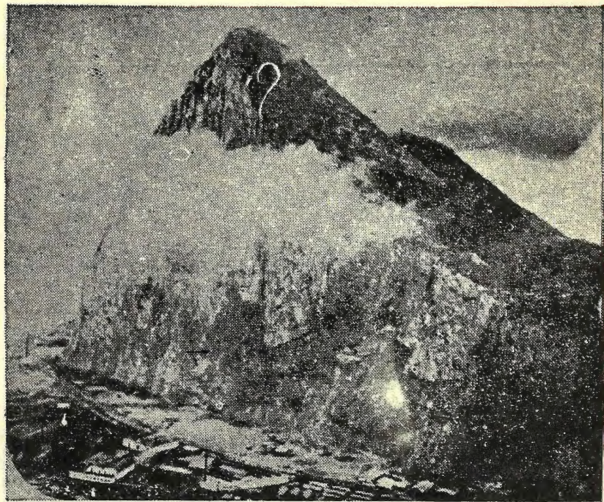


مكتبة الصفاة



٢

جبل طارق والعرب..



عبد الغني الزواوي

جبل طارق والعرب..

عبد العزيز الرافعي

« ٠٠ وجبل طارق هذا كريم التربة ،
عظيم المنعة ، باسق مع عنان السماء ،
يكاد في المامته يصل الى الجوزاء ، كل ما
استودع في أرضه نما وزكا وفضل ، وجل
وأثمر ٠٠ »

ابن صاحب الصلاة

وأقود قد ألقى على البحر متنه
فأصبح عن قود الجبال بمعزل
يعرّض نحو الافق وجهها كأنما
تراقب عيناه كواكب منزل
مطرف « شاعر غرناطة »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمه

الحمد لله .. والصلاة والسلام على
من لا نبي بعده .

وبعد ، فهذا البحث القصير عن
« جبل طارق والعرب » كنت نشرته في مجلة
« قافلة الزيت » .. ثم رأيت أن أنشره ضمن ما أنشر
من هذه « المكتبة الصغيرة » ، التي أرمي من ورائها
إلى تيسير المعرفة ، في عرض موجز ، يكفل
الإفادة ، ولا يورث الملل .. ولعلها أدنى إلى
روح العصر العاجل ..

والبحث عن علاقة العرب بجبل طارق ،
يمثل جانباً من بحث أوسع عُنيت به ، يتناول
المناطق التي اتخذ منها الفتح الإسلامي نقاط
دفاع أو انطلاق إلى العالم الواسع الذي حمل

إليه المسلمون رسالة الدعوة الإسلامية . . وقد أصبحت هذه المناطق فيما بعد ، أو على الأدق أصبح الكثير منها ، قواعد الإمبراطورية البريطانية التي اتخذتها للمحافظة على سلامة مستعمراتها فيما وراء البحار .. أو هي بعض ما عُرف بالمراكز الاستراتيجية .

على أن جبل طارق ، وإن مثل نقطة انطلاق الفتح العربي الإسلامي إلى الأندلس . . فقد مثل من جانب حضاري ، البوابة الرئيسية الكبرى التي التقى فيها الشرق بالغرب .. نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية ، بكل إشراقاتها الروحية والفكرية ، حيث قعدت أوروبا هناك مقعد التلميذ من الأساتذة المسلمين ، فنقلت عنهم الطب والفلك والفلسفة وغيرها من العلوم ، وفتحوا أمامها آفاقاً جديدة من العلم والمعرفة . . والبحث الذي أقدمه اليوم عن جبل طارق إنما هو بحث تاريخي مجرد .. يقتصر حديثه عن علاقة العرب من الوجهة التاريخية ، بهذا



الجبل ، وعن دورهم الحضاري فيه . . وهو
لا يتجاوز هذا المضمار المحدود ، إلا فيما يقتضيه
السياق إتماماً للفائدة التاريخية ليس غير .
وبعد .. فمن الله ، عزت قدرته ، أستمد
العون ، وأسأله التوفيق .

عبد العزيز الرفاعي

الطائف ٢٠ - ٤ - ١٣٨٩

كلمة عن الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسوله
الأمين .

وبعد ، فهذه الطبعة الثالثة من هذه الرسالة ، أقدمها
للقرءاء ، بعد أن أدخلت فيها شيئاً من التعديلات والإضافات
خاصة بعد أن اتاح لي أن أزور جبل طارق في صيف عام
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ ، وقد مهّد لي السبيل إليه من طنجة
الصديق العزيز الاستاذ أحمد حياة مدير بنك المغرب في
طنجة واني لأرجو أن يتاح لي أن أعاود طبع هذا الكتيب
بنحو أوفى واكمل .

عبد العزيز الرفاعي

الطائف غرة جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ

قصة الاسم

مند الفتح الإسلامي للأندلس ، اقترن اسم جبل طارق باسم فاتحه القائد المسلم طارق بن زياد ، مولى موسى بن نصير (١٩ - ٩٧ هـ) أحد قادة الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان

وقد ظلّ الجبل محتفظاً بهذا الاسم إلى الوقت الحاضر فهو في الإنجليزية (Gibraltar)
أما في الأزمنة القديمة فقد تداولته عدة أسماء ، بيد أنه كان قبيل الفتح الإسلامي يعرف بجبل كالي (Mount's Calpe)

ولقد حاول الخليفة الموحّدي ، عبد المؤمن بن علي أن يطلق اسماً جديداً على الجبل ، أو المدينة التي ابتناها به ، فأمر بتسميته « بجبل الفتح » أو « مدينة الفتح » (سنة ٥٥٥ هـ - ١١٦٠ م) ، إلا أن اسم جبل طارق ظلّ غالباً وان اقترن اسم « جبل الفتح » في المؤلفات العربية التالية للعهد الموحّدي بشيء من الذبوع .

وقد شمل اسم جبل طارق ، المضيق الذي تقع الصخرة على شواطئه الشمالية فأطلق عليه أيضاً اسم مضيق جبل طارق وقد كان العرب يسمونه « الزقاق » أو « المجاز » أو « معبرة هرقل » أو « معبرة الأسد » ، وهذه التسمية الأخيرة ، ربما كانت ذات علاقة بما يوحى به المنظر العام للصخرة ، فقد قال الأستاذ محمد عبد الله عنان ، يصفها في كتابه ، « الآثار الأندلسية الباقية » : (إن الجبل أو الصخرة تربض في البحر على شكل أسد عظيم . . رأسه نحو البحر . .) وهذا الوصف من شاهد عيان زار الجبل والمناطق المحيطة به .

وقد زرت الجبل في صيف عام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م فرأيت مصداق ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن شكل الأسد العام لا يبعد كثيراً عن شكل « الكلب » فهل هناك علاقة لغوية بين كلب وكالبي Calpe الاسم القديم للجبل ؟

إن دائرة المعارف البريطانية تقول ، إن هناك رواية تذكر أن الفينيقيين في غابر الزمن حينما احتلوا الجبل أطلقوا عليه اسم « كالبي » والفينيقيون في بعض الأقوال

عرب ، أو يمتون إلى العرب بسبب ، وإذاً فلا يبعد أن يكون الاسم ذا أصل عربي ، وانه اشتق من هذا الشبه بين شكل الصخرة ، وشكل الكلب ، فتكون الصخرة قد شبهت تارة بالأسد ، وتارة بالكلب .

أما تسميته بمعبرة هرقل ، أو هر كول (Hercule) فيقول صاحب منجد الآداب والعلوم ، إن الأقدمين دعوا « باسمه عواميد هر كول ، وهو مضيق جبل طارق ، لاعتبارهم أن المرور منه إلى الأطلسي لا يقوى عليه إلا الجبابرة ، أو أن أعمدة هرقل ، التي كانت قائمة في طرفي المضيق على شاطئ جبل طارق من الجهة الشمالية الأوربية وعلى شاطئ « سبتة » أو « أبيلا » من الجهة الجنوبية الإفريقية ، كانت تعزى لعظمتها وجبروتها إلى هرقل ، أحد أبطال « الميثولوجيا » الإغريقية .

على أن هذا لا يعدو كونه مجرد استنتاج وكما يطلق اسم جبل طارق على المدينة وعلى المضيق فإنه يطلق أيضاً على الميناء القائم غربي الصخرة ، وعلى الخليج الذي يقوم عليه الميناء .

من هو طارق ؟

هو طارق بن زياد الليثي بالولاء ، أصله من البربر ، قيل أنه أسلم على يد موسى بن نصير ، وقيل بل كان أبوه زياداً مسلماً على عهد عقبة بن نافع فاتح بلاد المغرب . ولد سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) وكان من رجال موسى بن نصير ، قائد الفتوحات الإسلامية في بلاد البربر ، وفي الأندلس ..

عندما فتح موسى بن نصير طنجة ، ولّى عليها طارق بن زياد ، وكان ذلك سنة ٨٩ هـ ، وظل والياً عليها إلى حين غزو الأندلس في سنة ٩٢ هـ كما سيأتي .

وقد اختلف طارق مع موسى بن نصير ، أثناء فتح الأندلس ، وقيل ان سبب الخلاف ، هو تغلغل طارق في فتوحاته في الأندلس قبل الحصول على موافقة موسى بن نصير ، مما أدى إلى عزله ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك أصلح بينهما ، فعاد طارق من جديد إلى نشاطه.

في الفتوحات .. ولكن الخليفة الأموي عاد فاستدعاهما
إليه فقصده الشام سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، حيث يرجح
أن طارقاً لم يُؤَلَّ بعدها شيئاً من الأعمال .

وقد توفي طارق سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ م) .

استيلاؤه على الجبل :

كان مقر ولاية طارق في طنجة ، بحيث يتطلع الشاطيء
الافريقي إلى الشاطيء الأندلسي المقابل ، وكأنما يدعوه
إليه . .

وكان لا يزال في الشاطيء الافريقي حصن لم يستول
عليه المسلمون بعد ، وهو حصن سبتة الذي يحكمه يُلِيان ،
ويرجح انه مرتبط بالامبراطور البيزنطي ، ولو كان ارتباطاً
اسمياً ، بالنظر لضعف الامبراطورية البيزنطية آنذاك
وبعدها .

وكان يُلِيان يمتاز بشخصية قوية حكيمة ، وقد
حرص على كسب ود طارق ، وموسى بن نصير ، وعمل على
توجيه أنظارهما إلى الشاطيء الاسباني ، لتتجه إليه
الفتوحات الاسلامية ، وهو بذلك يحقق أكثر من هدف

فمن أهدافه : شغل نشاط الفتوحات بعالم جديد بعيداً
عن حصن سبتة

ومنها : ظهوره بمظهر الصديق الناصح المعين ، فقدم
خدماته كدليل ، وقدم سفنه كمعين .

ومنها : التخلص من خصمه لذريق ، وقد قيل أيضاً
أن يُليان أحب أن يثار لعرضه ، حيث تقول بعض الروايات
أن لذريق اعتدى على ابنته التي كانت تعيش في
قصره ، بل في القصر الذي كان لغيطة من قبل ، اذ استولى
لذريق على الحكم مغتصباً له وقتل غيطشة ، وكانت ابنة
يُليان تعيش في كنف غيطشة .. اذ كان يُليان حليفه
وصديقه

لقد قام يُليان باقناع موسى بن نصير بالاستيلاء على
بلاد لذريق ، وأستأذن موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك ،
الذي تردد أول الأمر خوفاً على المسلمين ، ثم أذن بأن
يختبر البلاد مبدئياً بسرية صغيرة ، فكانت سرية أبي زرعة
طريف بن ملوك (أو مالك) الذي استولى على جزيرة
بالوماس Palomas التي أصبحت تحمل اسمه من بعد Tarifa
مما شجع موسى بن نصير على موالاة الحملة ، فأرسل

رجله القوي طارق بن زياد في جيش مقداره سبعة آلاف رجل ، كانت تنقلهم أربع سفن ليلىان ، في دفعات كلما ذهبت دفعة إلى الشاطيء الاسباني اختبأت ، وهكذا التي تليها في انتظار القائد ثم بدأ الغزو ، وكان معظم رجال طارق من البربر إلا قلة من كبار الجند من العرب .

كانت هذه الحملة في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ولكن يختلف المؤرخون في تحديد الشهر الذي تمت فيه ، ولعل الاختلاف يرجع إلى أن انتقال الجنود المسلمين إلى الشاطيء الآخر على مراحل ودفعات متتالية ، وان طارق بن زياد انما وصل إليه في شهر رجب ٩٢ هـ ، حيث تجمع الجيش الذي أصبح ١٢٠٠٠ رجل ، بعد أن أمده موسى بن نصير ، بمدد اضافي .

وهناك خطب طارق يحمس الجيش المسلم على القتال والصبر والجلد ، حيث ذكّرهم ان العدو أمامهم والبحر خلفهم ، فليس ثمة سفن تمكنهم من الانسحاب (١) .

١ - كنت اميل في الطبعة الاولى الى قصة احراق السفن من قبل طارق ، ولكن الصديق الاستاذ الجليل محمد سعيد العامودي لفت نظري الى ضعف هذه القصة ، وبعد حوار ومراجعة ، ترجع عندي أن المعقول هو أن يلىان استعداد سفنه ، فلم يعد للجيش المسلم الا أن يثبت في القتال ، حيث انعدم خط الرجعة ، وقد بحث الموضوع صاحب كتاب (فجر الاندلس) ولقد اورد -

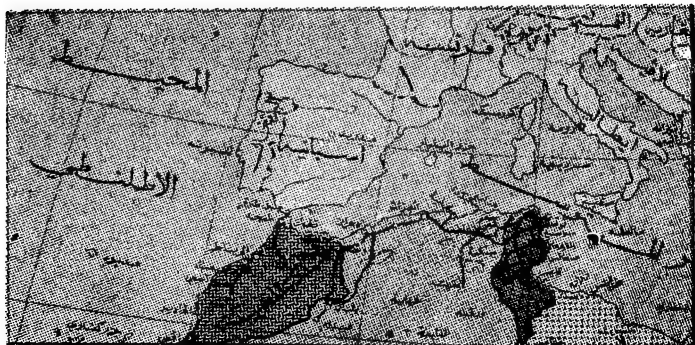
وقد استولى طارق على الجبل والشاطئ المحيط به
وسارع إلى تحصينه ، وتقول دائرة المعارف البريطانية : -
انه وصل في أواخر يولييه من سنة ٧١١ م وقوّض دعائم
الاستحكامات والقوى القوطية خلال قتال دام ثلاثة أيام
على ضفتي نهر غواوليت الذي توجد بالقرب منه الآن
ضاحية جيرز دي لافرونتيرا ، وأمر ببناء قلعة على الصخرة
التي كانت تحمل اسم مونت كالبه ، وقد بدأ بناؤها من
سنة ٧١١ م ، ولكنها لم تنته الا سنة ٧٤٢ م ، وانها اشتملت
على مساحة تصل من شاطئ الخليج إلى نقطة واقعة في
منتصف الطريق المؤدية إلى منحدر الصخرة من الجهة
الشمالية الغربية ، وان هذا الحصن عبارة عن برج مربع
عظيم باق إلى الآن يعرف باسم القلعة المراكشية أو المغربية اه

- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٧ - ٢٥٧ هـ) في تادريته
نصا يدل سياقه على أن السفن رجعت لصاحبها يليان ، فهو يقول « فلما امسى
جاءه يليان بالراكب فحملة فيها الى ذلك المجاز ، فاكمن فيه نهاده ، فلما
امسى رد الراكب الى من بقى من اصحابه ، فحملوا اليه حتى لم يبق منهم
أحد ، ولا يشعر بهم اهل الاندلس ، ولا يظنون الا أن الراكب تختلف بمثل
ما كانت تختلف به من منافهم ، وكان طارق في آخر فوج ركب ، فجاز الى
اصحابه ، وتخلف يليان ومن كان معه من التجار بالغصراء الخ » .

والمرجح ان الحصن القائم الآن من بناء الموحدين كما
سأوضح ذلك .

ثم أخذ طارق يوالي فتوحاته في بلاد الأندلس ،
ولحقه موسى بن نصير ، حيث تعاونوا على الفتح ، وذلك
قبل أن يدب الخلف بينهما .

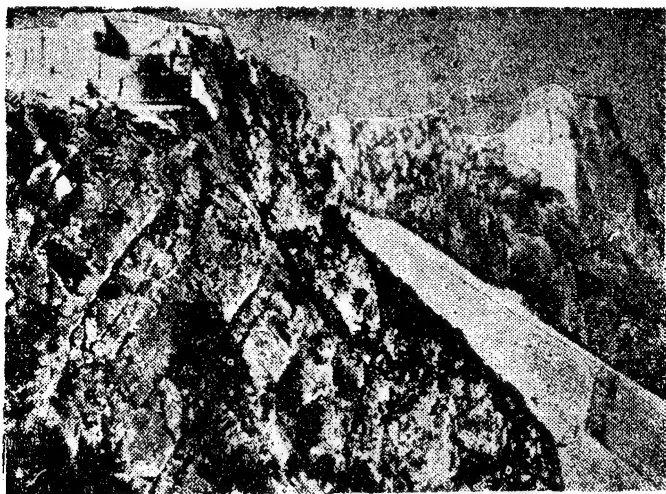
استراتيجية (جبل طارق)



والتأمل لخريطة منطقة جبل طارق ، يلمس أن اختيار العرب جزيرة «طريف» أولاً ، ثم جبل طارق ثانياً ، لبدء محاولاتهم في فتح الأندلس ، كان اختياراً طبيعياً لاقتراب هذين الموضعين من الشاطئ الإفريقي ، حتى لكأن هذين اللسانين يحاولان الإتصال بالبر الإفريقي .. ولا يستبعد احتمال كونهما كانا متصلين به في غابر الأزمان . كما يقول بذلك علماء الجيولوجيا حيث يقدرون أن الأرض هناك ظلت متصلة مئات الآلاف من السنين .

وقد كان هذان الموضوعان دائماً جسراً للفتحين عبر الأزمنة .

وروى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بـ « شيخ الربوة » (٦٥٤ — ٧٢٧ هـ) في كتابه « تحفة الدهر في عجائب البر والبحر » إن المؤرخين زعموا أن الإسكندر حضر الزقاق وأجراه من المحيط ليغرق به أهل الأندلس والبربر ، وأهل بر العدو والإسبان ، ليمنعهم من غارات بعضهم على بعض ، وزعم آخرون أنه لم يحفره ، ولكنه أراد أن يعمر عليه جسراً من قناطر ففعل ذلك ، ثم إن البحر طما وزاد ، وغطاها .. وأنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عند سكون الرياح ، وهدوء الموج ، ونقص مده وجزره . ثم وصف المؤلف عرض الزقاق ، فقال انه ثمانية عشر ميلاً (الآن) وأن الجسر الذي بناه الإسكندر في أضيق مكان أمكنه البناء هو أربعة آلاف خطوة وذلك طول ميل واحد . ثم وصف القناطر والجسور ، وإن الإسكندر استعان في بنائها بفكرة المراكب المتصلة المتقيدة بسلاسل .. كل ذلك في وصف شائق (١)



قمة الجبل والى يسارها خزان للمياه

أما صاحب نفح الطيب « أحمد بن محمد المقبري المتوفي عام ١٠٤١ هـ فيقول في الباب الأول من كتابه في وصف بلاد الأندلس (ص ٣٣) عن قصة الاسكندر ما نصه : « وقال غير واحد من المؤرخين ؛ كان أهل المغرب الأقصى يُضرون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، إلى أن اجتاز بهم الاسكندر ، فشكوا حالهم اليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي ونقلها من الحضيض إلى أعلى ، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبني عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبني رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة ، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فم الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين ، وطفأ

الماء على الرصيفين احدى عشرة قامة ، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فانه يظهر في بعض الأوقات اذا نقص الماء ظهوراً بيناً مستقيماً على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي من جهة العدو فان الماء حمله في صدره ، واحتقر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبته وطنجة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما ، والجزيرة الخضراء ، وبين سبته والجزيرة الخضراء عرض البحر . انتهى ملخصاً .

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي ، في تعليقه على كتاب « المن بالامامة » لابن صاحب الصلاة ؛ ان رصيف الاسكندر الذي يمتد من طنجة إلى ساحل الأندلس قد تهدم قبل الفتح الاسلامي بمائتي سنة . اهـ

ومن مجموع هذه الأوصاف يسهل أن نتصور ان هناك رصيفين كانا متقابلين ، أحدهما على الشاطئ الافريقي ، والآخر على الشاطئ الأوروبي ، وصل بينهما بقناطر من المراكب المشدودة على كل من الرصيفين.

بسلاسل قوية .. وان الأحداث والأزمان المتعاقبة ذهبت
بتلك القناطر ، وان ظلت هناك آثار للرصيف والسلاسل
تتكشف بالجزر الشديد ، كما حدثنا بذلك شيخ الربوة .

بل لقد صرخ بذلك المسعودي (ت ٣٤٦) في مروج
الذهب (ص ٣٤٨ من الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ تحقيق محمد
محي الدين عبد الحميد) وذلك في سياق قصة العالم المعمر
القبطى ، الذي أحضره لابن طولون ، ووجهت إليه
اسئلة عدة ، كان يتولى الإجابة عليها ، قال :

« وقد كان بين الأندلس ، وبين الموضع الذى يسمى
الخضراء ، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ، قنطرة
مبنية بالحجارة والطوب ، تمر عليها الأبل والدواب من
بلاد الأندلس إلى المغرب ، وماء البحر تحت تلك القنطرة ،
متقطع خلجانات صفاراً تجري تحت قناطرها ، وما عقد
من الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل
حجر إلى حجر طاق ، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من
أوقيانوس ، وهو بحر المحيط الأكبر فلم يزل البحر يزيد
ماؤه ، ويعلو ارضاً فأرضاً في طول ممر السنين ، يرى

زيادته أهل كل زمان ، وتبينه أهل كل عصر ويقفون
عليه حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين
قبرس ، وعلا القنطرة التي كانت بين الاندلس وبر طنجة
وما وصفت فبين ظاهر ، عند أهل الاندلس ، وأهل
فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة ، وربما بدا
الموضع لأهل المراكب تحت الماء فيقولون : هذه القنطرة .
وكان طولها نحو اثني عشر ميلاً في عرض واسع ، وسمو
بيّن ، فلما مضت لديقراطيانوس من ملكه مائتان وأحدى
وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع ..
الخ . »

وهكذا نرى ان أمر القنطرة وارد ومحمّل ولا ارى
تعارضاً بين ما ذكره « شيخ الربوة » من الاستعانة بفكرة
المراكب المتصلة والمقيدة بالسلاسل ، وبين ما ذكره
المسعودي ، من ان بناء الطاقات كان بالحجر والصخور
الصماء .. فاني اتصور ان الطاقات الحجرية ، انما بنيت
على الساحل الضحل من كل جانب من الجانبين المتقابلين ..
حتى اذا تعذر البناء في الوسط حيث الاعماق البعيدة ،

استعين بفكرة المراكب المتصلة المقيدة بالسلاسل . .
والسؤال الذي يتبادر الآن إلى الذهن ، والذي يظل
الجواب عليه غامضاً هو : هل ثمة صلة بين أعمدة هرقل ،
وبين أرصفة الاسكندر ؟

وسواء أكان المضيق متصلاً ، وأن الأيدي البشرية هي
التي حفرته ليتصل البحرين فيكون في ذلك نفع كبير
للملاحة البحرية ، كما هو عليه الحال في قناة السويس ،
أو أن البحرين كانا منفصلين ، وأن الجهود البشرية كانت
تحاول وصلهما بعمل قناطر وجسور تحقق الهدفين معاً .
اتصال البحرين واتصال البرين معاً ، مثل المحاولات التي
تبذل الآن لوصل ساحليّ بحر المانش بين فرنسا وبريطانيا ،
سواء أكان هذا أو ذاك ، فإننا نكتفي بهذه الدلالة على
أهمية المنطقة وحيويتها في وصل قارة أوروبا بافريقيا ،
وفي وصل البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) بالمحيط
الأطلسي (بحر الظلمات) .

ولا شك أن مضيق جبل طارق يعتبر أضيق نقطة
تلاق بين أوروبا وافريقيا ، ولايزيد عرضه عند أضيق نقطة

منه عن تسعة أميال بينما يبلغ عرضه في أكثر نقطة اتساعاً .
أربعة وعشرين ميلاً ، وبالإمكان رؤية الصخرة من شاطئ
سبتة الافريقي ، وإن كانت تبدو منه كالغمام القاتم (١) .
وإذا كان (شيخ الربوة) قد روى أن الإسكندر
حفر الزقاق أو عمر عليه جسوراً ، مما سلفت الإشارة إليه ،
فإن لصاحب معجم البلدان رواية أخرى ، فهو يحدثنا في
مادة (بحار - بحر المغرب) في الجزء الأول من كتابه
بما يلي :

« .. وقرأت في غير كتاب من أخبار مصر والمغرب ،
أنه ملك ، بعد هلاك الفراعنة ، ملوك من بني دلوكة ، منهم
دركون بن قلوطي وزمطرة ، وكانا من ذوي الرأي والكيد
والقوة ، فأراد الروم مغالبتهما على أرضهما ، وانتزاع الملك
منهما ، فاحتالا بأن فتقا البحر المحيط من المغرب ، وهو
بحر الظلمات فغلب على كثير من البلدان العامرة ، وامتد

١ - الآثار الانكليزية الباقية للاستاذ محمد عبد الله عنان . وقد حاولت ان
اشاهد الجبل من ساحل طنجة ، ولكن الغمام كان يحول دون ذلك ، وقد
حدثني من اثق به من اهل طنجة انهم يرونه اذا صفا الجو .

إلى الشام وبلاد الروم ، وصار حاجزاً بين بلاد الروم ،
وبلاذ مصر » .

وتجربنا هذه الحكايات التي تروى عن مضيق جبل
طارق ، إلى أسطورة الطلسم الذي قيل انه وجد عند فتح
الأندلس ، كما تذكرنا أيضاً بما جاء في كتاب « ألف ليلة
وليلة » عن جبل المغناطيس ، وبالكنوز التي وجدها طارق
وموسى بن نصير في الأندلس ، وعما يروى أيضاً عن قارة
الأطلانطيد ، وما يحوم حولها من قصص .. ولشد ما
تختلط بعض الحقائق أحياناً بالأساطير اختلاطاً يقف منه
العقل البشري موقف المتحير !

جغرافيته وتاريخه

يتألف جبل طارق من كلس جوراسي ويبلغ طوله ٤٥ ر ٢ كيلو متر ، وعرضه ١٢ ر ١ كيلو متر ، وارتفاعه ٤٢٩ مترًا كما يبلغ تعداد سكانه حوالي ثلاثين ألفاً ، وهم خليط من الإسبان والإنجليز ، وبعض العرب المراكشيين . ويدخل ضمن هذا العدد ، الحامية الإنجليزية التي تبلغ حوالي السبعة آلاف .

وقد استولت بريطانيا على الجبل في سنة (١١١٦هـ - ١٧٠٤م) ويربط شبه جزيرة طارق بسائر إيبيريا أو بإسبانيا ، منطقة محاذية ، تتألف من سهل رملي ، وتمتد بجوار الصخرة نحو سبعمائة متر ، ويبلغ عرضها نحو أربعمائه متر (١) ، وتشكل هذه المنطقة المعبر الذي يصل عن طريقه الآن تموين الجبل باحتياجاته كما يصل عن طريقه العاملون في الميناء من الإسبان الذين يعودون في المساء إلى الأرض الإسبانية .

١ - الآثار الأندلسية الباقية : لمحمد عبد الله عنان .



منظر للجبل وهو مطل على اسبانيا من الشمال

ولقد ظلت سيطرة المسلمين على الجبل ممتدة لما يزيد
على سبعمائة عام، فقد خسروه بصفة نهائية سنة (١٤٩٢هـ/١٨٩٨م)،
حيث استولى عليه الإسبان ، بعد عدة محاولات وحملات.



في عهد الموحدين

سبق أن أشرت إلى أن الخليفة الموحد عبد المؤمن ابن علي أطلق اسماً جديداً على الجبل هو: « جبل الفتح »
وان هذا الاسم حظي ببعض الذبوع في العهد الموحد
وبعده .

لقد قام هذا الخليفة بدور عمراني هام ، بالنسبة لتاريخ
جبل طارق في عهده الإسلامي ، ولعل خير من أرخ
لهذه الفترة من تاريخ الجبل « عبد الملك بن صاحب
الصلاة » (٥٩٤ هـ - ١١٩٨ م) في كتابه « تاريخ المن
بالامامة » ، الذي حققه الدكتور « عبد الهادي التازي »
وزوده بكثير من الهوامش القيمة المفيدة .

ولقد اتبح المؤلف (المن بالامامة) ، أن يعاصر عمران
الجبل في عهد الموحدين ، ووصف ذلك العمران وصفاً دقيقاً
مسهباً تضافرت فيه الرواية والملاحظة معاً ، ويذكر في ذلك
أن الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي ، أمر بإنشاء مدينة
كبرى في جبل طارق ، لتكون قاعدة له ولجنده للعبور إلى

الأندلس ، وكلف ابنه أبا سعيد عثمان بالمسير من غرناطة إلى جبل طارق ، واستنفر لأجل ذلك أشهر البنائين والمهندسين ، وفي مقدمتهم الحاج « يعيش المالقي » ، وهو مهندس شهير فنان اشتهر بإبداعه ، والعريف « أحمد بن باسه » وهو يعتبر أحد كبار الخبراء في الأعمال المعمارية وكان الموحدون يعتمدون عليه في مشاريعهم . (ص ١٤٠ من كتاب المن بالامامة وما بعدها) ..

يقول ابن صاحب الصلاة : « وأحكم البناؤون فيه بناء القصور المشيدة والديار ، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور ، مما هو عجيب في الآثار ! »

ثم استطرد يصف الجبل فقال :

« وجبل طارق هذا شريف البقعة ، كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعنان السماء ، يكاد في إلمامته يصل إلى الجوزاء ، وكل ما استودع من البطحة المنبسطة من بعضه نما وزكا وفضل ، وجل وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل ، واستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح

والكمثرى ، والسفرجل ، والمشمش والأجاص ، والأترج
والموز وغير ذلك على ضيق ضفته الممتدة من الجبل ،
المستمدة من الطل والوبل ، وماؤه عذب زلال ، مروق
سلسال .

ثم ذكر الطاحونة الهوائية التي عملها الحاج « يعيش »
فقال :

« .. وكان الحاج « يعيش » المهندس ، مدة إقامته
للبناء على ما ذكرته فيه ، قد صنع في أعلاه رحي تطحن
الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما
رجع إلى مراکش عند إكمال ما أمر به ، فسدت الرحي
لعدم الإهتمام بها .. »
ثم استمر يصف البناء :

« واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء
السور ، والباب المسمى بباب الفتوح ... » .
وبعد أن أنجز العمران الضخم الذي أمر به الخليفة
الموحدي عبد المؤمن بن علي ، عبر البحر من سبتة ، ليشهد

ذلك العمران ويحتفل به ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة
عام ٥٥٥ هـ . (١١٦٠ م)

وقد كان احتفاله بإنجاز هذا العمل العظيم احتفالاً
مشهوداً تبارى فيه الشعراء والخطباء .. وكان من شعراء
ذلك اليوم أبو بكر ابن المنخل الشلي ، وأبو العباس أحمد
ابن سعيد الاشيلي المسمى « بالاص » ، والشاعر المعروف
« بالطلق » ، وأبو الحسين عبيد الله بن محمد بن صاحب
الصلاة الباجي ، ومحمد بن حبوس الفاسي ، وأبو عبد الله
الرصافي ، وأبو جعفر بن سعيد العنسي ، وأبو العباس
الجراوي (١) .

وقد ذهب الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه القيم
« الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » في هامش
الصفحة ٦٨٦ إلى أن ابن صاحب الصلاة ، مؤلف كتاب
« المن بالامامة » كان من شهود هذا الحفل وهو وهم ،
فليس في كتاب المن بالامامة ما يدل على اشتراكه في هذا
لحفل .. فقد قال بعد أن أتى على ذكر بعض قصائد
الشعراء الذين ألقوا قصائدهم فيه ، مانصه :

١ - ابن صاحب الصلاة ، والمعجب للمراكشي .

« حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هارون قال : كنت واحداً من جميع الوفد الذين بادروا بقصدهم ووفدهم مع أهل إشبيلية ، ومن كان تحت طاعة التوحيد من أهل الأندلس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه بجبل طارق ، وأقمنا معه نحو عشرين يوماً ... الخ » .

ولم يكن ابن صاحب الصلاة في حاجة إلى مثل هذه الرواية لو حضر الحفل .. ولعل الوهم أتى من أنه حضر فعلاً حفلاً آخر أقيم في الجبل نفسه ، ولكن في غير عهد الخليفة عبد المؤمن .

ولعل هذا الوهم قد أتى أيضاً من أنه كان من بين شعراء حفل الخليفة عبد المؤمن ، شاعر يحمل لقب صاحب الصلاة هو أبو الحسين عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي وهو غير صاحبنا ، وقد مر ذكره .

ويدل السياق الذي يصف فيه صاحب « المن بالامامة » حفل الخليفة عبد المؤمن ، على اعتماده على الرواية لا المشاهدة ، فهو يقول بعد إيراده قصيدة الشاعر المعروف « بالاص » التي مطلعها :

غمّض عن الشمس واستقصر مدى زحل

وانظر إلى الجبل الراسي على جبـلـ

يستمر في سرد الوصف فيقول :

« قال الرواية : لما أنشد المنشد هذه القصيدة أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر « غمض عن الشمس » وقال على مسمع من الناس « غمّض .. غمّض » منكراً لها ، لأنه كان يجب الفأل الحسن ، لكنه أمر له بعشرة دنانير كما أمر لكل شاعر » .

هذا عدا عن أن ابن صاحب الصلاة يلتزم الدقة في أقواله فهو حينما نزل بجبل طارق فيما بعد على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قال : « كنت من جملة الواردين » فلو حضر الحفل الأول لذكر ذلك مصرحاً به ، ولم يقل قال الراوي .

وللحفل الآخر صلة لما آل إليه الأمر بعد وفاة الخليفة عبد المؤمن ، وبعد أن تولى الخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف وظلت الوزارة والسلطة في يد أخيه أبي حفص . فقد خرج ابن صاحب الصلاة إلى الأندلس ، مرافقاً لمركب أبي حفص حينما عبر للقاء أخيه أبي سعيد في جبل طارق ، بقصد إزالة الخلاف الناشب حول الخلافة بعد الخليفة عبد المؤمن ، وقد قصد أبو حفص أن يجمع الكلمة لأخيه أبي يعقوب

يوسف ، وقد احتفى أبو حفص بعودة أخيه أبي سعيد إلى
حظيرة الولاء فوزع الأعطيات ، وتقبل التهاني ، وتنافس
الشعراء في التهئة بهذه المناسبة ، ومن بينهم أبو عمرو بن
حربون ، الذي أنشد قصيدة دالية مطلعها :

قد حصحص الحق لا ريب ولا فند
هذي الفتوح التي كانوا بها وعدوا

وهي التي يقول فيها :

أنظر إلى مجمع البحرين كيف حوى
من الفضائل ما لم يحوه بلد

وفي هذه الرحلة شارك مؤلف كتاب « المن بالامامة »
في سوق الشعراء ، فألقى أبياتاً ، ولكنه لم يذكر منها شيئاً
في كتابه ، كما أنه لم يذكر شيئاً عن مشاهداته في الجبل ،
ولعله اكتفى بما سبق أن أورد من وصف في مناسبة احتفال
الخليفة عبد المؤمن عند بناء المدينة العظيمة في الجبل .

آثار

ويحدثنا الأستاذ « محمد عبد الله عنان » في كتابه القيم « الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال » أن هناك بقايا الحصن الأندلسي أو القصر الأندلسي أو المغربي Moorish Castle وأنه عبارة عن قلعة حصينة ، تقوم فوق ربوة عالية ، تقع على مقربة من الطرف الشمالي الغربي للصخرة ، ومن تحتها سراديب وعقود عربية ، وأنه يدل تخطيط القلعة وحافاتها على أنها قد ترجع إلى عهد الموحدين مشيراً إلى ما بناه الخليفة عبد المؤمن ، كما مر ذكره . ولكنه يعود فيقول أن بعض الأثريين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية ، وأنها قد أنشئت فيما يبدو في عصر السلطان يوسف أبي الحجاج في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، بل إنه يغزو هذا الرأي إلى الأستاذ « توريس بالياس » في مقال له عن جبل طارق في مجلة الأندلس ، ويضيف الأستاذ عنان قائلاً ، إن المرجح أن هذا البناء قد أقيم على أنقاض القلعة الأندلسية القديمة ،

التي أقيمت منذ الفتح ؛ كما يذكر بعض الآثار الأخرى
كالحمامات العربية ، والأسوار الأندلسية ، ولكنه لا يجزم
بأشياء يقينية معزوة إلى مؤسسيها ، إذ يبدو أنه لم تعد
هناك نقوش أو خطوط توضح ذلك بصفة جازمة .

ولقد اتيح لي أن ازور القلعة المراكشية ، في صيف سنة
١٣٩٢ هـ ، وتجولت في أرجائها ، وسرايها .. وترجع
لدى أنها من بناء الموحدين ، فاقدم شاهدت في سطوحها
قاعدة ، اتخذت اليوم ، للعلم البريطاني ، أحسبها هي
التي كانت قاعدة طاحونة الهواء التي عملها المهندس
« يعيش » واشاد بها ابن صاحب الصلاة ..

وفي جبل طارق متحف لآثاره ، ولكن القسم الصغير
المخصص للآثار العربية ، في هذا المتحف لا يعطي فكرة
واضحة عن الحضارة العربية خلال فترة حكم العرب
للجبل .

أهم المراجع

- * محمد عبد الله عنان :
- « الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال » .
- * عبد الملك بن صاحب الصلاة .
- « تاريخ المن بالامامة » . تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي .
- * شيخ الربوة : شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي :
- « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » .
- * عبد الواحد المراكشي :
- « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » .
- * دائرة المعارف البريطانية .
- * ياقوت الحموي :
- « معجم البلدان » .
- * الدكتور حسين مؤنس :
- « فجر الأندلس »
- * منجد الآداب والعلوم
- * دائرة المعارف الإسلامية

الفهرس

صفحة	
٣	مقدمة
٧	كلمة عن الطبعة الثالثة
٨	قصة الاسم
١٣	من هو طارق ؟
١٩	استراتيجية جبل طار
٢٩	حغرافيته وتاريخه
٣٢	في عهد الموحدين
٣٩	آثار
٤١	اهم المراجع

صدر من هذه السلسلة

١ - توثيق الارتباط بالتراث العربي « طبع للمرة الخامسة »

عبد العزيز الرفاعي

٢ - جبل طارق والعرب « طبع للمرة الرابعة » له

٣ - خمسة أيام في ماليزيا طبع للمرة الثانية »

٤ - كعب بن مالك الصحابي الأديب »

طبع للمرة الثالثة له

٥ - أبو محمد البطل طبع للمرة الثالثة يحیی ساعاتي

٦ - أم عمارة طبع للمرة الثالثة

عبد العزيز الرفاعي

٧ - أبو دلف طبع للمرة الثالثة د. محمد عبد المنعم

خفاجي

٨ - قصائد من مقبل العيسى

٩ - من عبد الحميد الكاتب عبد العزيز الرفاعي

طبع للمرة الثانية

- ١٠ - قريتي الخضراء قصة شعرية للاستاذ احمد قنديل
- ١١ - كرائم النساء طبع للمرة الثانية للاستاذ احمد جمال
- ١٢ - الغزو الفكري » » » للاستاذ عبدالله عبد الجبار
- ١٣ - بنو الانير » » » للاستاذ محمد بن حمدان
- ١٤ - اطياف من الماضي شعر للاستاذ محمد عبدالقادر فقيه
- ١٥ - من أجل الشباب طبع للمرة الثانية للاستاذ احمد جمال
- ١٦ - الحج في الادب العربي » » » للاستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- ١٧ - من امهات الكتب » » » للاستاذ العوضي الوكيل
- ١٨ - سوق عكاظ للاستاذ علي حافظ

المكتبة الصغيرة

يصدرها : عبد العزيز الرفاعي

تهدف هذه المكتبة إلى تيسير المعرفة ، في عرض موجز يكفل الافادة والتنوع ، ولا يورث الملل ، وهي إلى ذلك أقرب ما تكون إلى روح العصر العجل السريع .
كتيباتها خفيفة المحمل ، زهيدة الثمن ، ميسرة الأسلوب .

روعي في اعدادها أن تكون صالحة لمختلف الأجيال ، ومختلف المستويات الثقافية .

وقد بدأت هذه السلسلة بتقديم بحث عن توثيق الارتباط بالتراث العربي ، تلاه بحث تاريخي جغرافي عن جبل طارق وعلاقته بالعرب ، ثم قدمت المكتبة الحلقة الثالثة وهي سطور من أدب الرحلات .

وكانت الحلقة الرابعة دراسة عن الصحابي الشاعر الأديب « كعب بن مالك » .

أما الحلقة الخامسة فهي رسالة عن البطل المسلم :

« أبو محمد البطل » .

والحلقة السادسة دراسة عن أم عمارة الصحابية الباسلة

وكتب الحلقة السابعة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

عن « أبو دلف » عبقرى من ينبع .

وجاءت الحلقة الثامنة إضمامة من الشعر الرقيق للشاعر

الاستاذ مقلب العيسى .

أما الحلقة التاسعة فكتيب « من عبد الحميد الكاتب

إلى الكتاب والموظفين » من إعداد عبد العزيز الرفاعي .

أما الكتيب العاشر ، فقصة شعرية رائعة للشاعر

الكبير الاستاذ أحمد قنديل .

والكتاب الحادى عشر « كرائم النساء » تراجم موجزة

لشهرات النسوة المسلمات للكاتب الاسلامى الكبير أحمد

محمد جمال .

ويعنى الكتاب الثانى عشر ، باستعراض محاولات « الغزو

الفكرى » وهو لستاذ الجليل عبد الله عبد الجبار .

والكتاب الثالث عشر (بنوالاثير) دراسة للاخوة
الثلاثة فرسان التأليف في التراث العربي للاستاذ الباحث محمد
ابن حمدان .

أما الكتاب الرابع عشر فديوان شعري رفيق للشاعر
الوجداني الاستاذ « محمد عبد القادر فقية » .

ويقدم الاستاذ احمد جمال ، الكاتب الاسلامي الشهير ،
توجيهات سديدة هادفة « من أجل الشباب » وذلك في الحلقة
الخامسة عشر .

وفي الحلقة السادسة العشرة يقدم صاحب السلسلة
عبد العزيز الرفاعي كتيبه « الحج في الادب العربي » .

أما الكتاب السابع عشر ، فهو للكاتب المصري الكبير
« العوضي الوكيل » وهو عن امهات الكتب العربية

وفي الكتاب الثامن عشر يقدم الكاتب السعودي الكبير
السيد « علي حافظ » دراسة تاريخية موجزة عن « سوق
عكاظ » .

تطلب هذه السلسلة من :

مكتبة الرياض الحديثة في الرياض شارع البطحاء

مكتبة الثقافة في مكة المكرمة

مكتبة دار الشروق في جدة

مكتبة المؤيد في الطائف

للاتصال بالمكتبة الصغيرة

الرياض

ص.ب ١٩٥٠

« جبل طارق »

انه وان مثل نقطة انطلاق
الفتح العربى الاسلامى الى
الاندلس ، فقد مثل من جانب
حضارى ، البوابة الرئيسية
الكبرى التى نفذت منها الحصار
العربية الاسلامية بكل اشراقاتها
الروحية والفكرية ، حيث قعدت
اوروبا هناك مقعد التلميذ من
الاساتذة المسلمين ، فنقلت
عنهم الطب والفلك والفلسفة
وغيرها من العلوم ، وفتحوا
امامها آفاقا جديدة من العلم
والمعرفة ..

ملبنة المعرفة

ترمى هذه المكتبة الى تيسير
المعرفة ، فى عرض موجز ،
يكفل الافادة ، ولا يورث
الملل ، ولعلها أدنى الى روح
هذا العصر العاجل ..

وتهدف الى تقديم ألوان
من الثقافة ، فيها البحث ،
والدراسة ، والرحلات الخ ..